

النظرية النقدية كبراديدم لتحليل الزوايا القائمة في العولمة الإعلامية

أ / مفيدة طابير

- جامعة قسنطينة -

ملخص

نتناول في هذا المقال اعتماد المقاربة النقدية للبحث في وسائل الإعلام والآثار المترتبة عن ذلك. لا شك أن، الدراسات النقدية تشكل أفقا واعدا لتطوير البحث في مجال الاتصال بوجه عام، كما أنها توفر غطاء معرفيا يضمن قيمة الخصوصية والهوية الثقافية في عصر العولمة الذي يهدد بإزالة كل ما هو محلي مع الميل المفرط لتنميط جميع جوانب النشاط البشري. هذه المخاوف، تشكل مادة دسمة للنظرية النقدية ؛ حيث أن ذلك يقدم الحجج على صدق مقولاتها. وبما أن وسائل الإعلام هي أدوات أساسية لتفعيل ونشر مظاهر العولمة، فهي تضع نفسها في خط الأفق بالنسبة لبروز ظاهرة الاغتراب الثقافي.. وبالتالي، فإن مسؤولية وسائل الإعلام في جعل الهيمنة الثقافية للنموذج الغربي تنويجا منطقيا للتاريخ هي مسؤولية ثقيلة.

Résumé

Cet article, traite de la théorie critique entant que paradigme approprié pour l'étude du contenu des médias à l'optique de la révolution de l'information. Certes, les Études critiques constituent un horizon accueilli pour la recherche dans le domaine de l'info- com, car elles fournissent une légitimité à la spécificité et l'identité culturelle à l'ère de la mondialisation qui menace de faire disparaître ce qui est local avec la standardisation de tous les aspects de l'activité humaine. Ces préoccupations constituent une matière riche pour la théorie critique qui y trouve beaucoup d'argument Et comme les medias sont des outils essentiels pour l'activation et le déploiement des manifestations de la mondialisation, ils sont à la ligne de mire par rapport à la provocation du phénomène de l'aliénation culturelle.. et par là, les médias contribuent à faire de l'hégémonie culturelle occidentale un aboutissement logique de l'histoire .

مقدمة :

تُشهد المدرسة النقدية في العقود الأخيرة انتعاشاً؛ حيث تجدد الاهتمام بأفكار روادها. و يعود هذا الاهتمام إلى التغيرات التي يشهدها العالم في المجالات السياسية والاقتصادية وحتى الاجتماعية والثقافية؛ حيث أن عملية التغيير طالت بنية المجتمعات وكذا الثقافات. و هو ما حدا بالباحثين إلى إعادة تأهيل التصور النظري الذي يقول بتطور المجتمعات عبر فعل الصراع .

1- **منطلقات أساسية:** يضع الطرح النقدي مسألة القوة في صميم العلاقات الاجتماعية⁽¹⁾. وتختلف مصادر هذه القوة لكنها قهرية بالضرورة. و هذا ما يحكم العلاقات بين الدول وعلاقات القوى الاقتصادية، بل والعلاقات بين أفراد المجتمع. فرغم أن الصراع "يعد ظاهرة اجتماعية موهلة في القدم، حيث يرى البعض أنها سمة ملازمة للمجتمعات البشرية، ولا يمكن تصور وجود جماعة بشرية خالية من الصراع. والصراع في جوهره هو أحد أنماط التفاعل الاجتماعي ينشأ عن تعارض المصالح، وهو موقف تنافسي يدرك فيه كل من المتنافسين أنه لا سبيل إلى التوفيق بين مصالحه ومصالح الطرف الآخر، فتتقلب المنافسة إلى صراع يعمل فيه كل طرف على تحطيم مصالح غريمه. و يأخذ الصراع شكل الهجوم والدفاع عندما يتعلق الأمر بالصراع الاجتماعي الذي يهدف إلى الفوز على الأفراد أو الجماعات المعارضة، أو الإضرار بها"⁽²⁾. هذا يجعلنا ندرك أن الصراع متلازم مع مسار تطور وتغير المجتمعات، مما يبرر عودة فكر الصراع في الواجهة مع نمو تنامي الصراعات الدولية التي نتج عنها تدخلات عسكرية وحروب أهلية وأخرى خارجية مع بروز النزعة للهيمنة لدى القوى الكبرى لاسيما الولايات المتحدة الأمريكية التي أصبحت القوة الأعظم في العالم قبل نهاية القرن الماضي .

والجانب الآخر هو أن الجماعات تستخدم القيم والأفكار لدعم أهدافها⁽³⁾؛ حيث أن الموقف النظري للمدرسة النقدية يحمل منظومة وسائل الإعلام على الصعيد العالمي مسؤولية ثقيلة، هذه الأخيرة التي استفادت من تطور تكنولوجيا الإعلام والاتصال لتتحول إلى منظومة كونية تخدم مصالح القوى المسيطرة والجماعات الضاغطة، من خلال نقلها للأفكار والقيم التي تعمل على غرسها في الجماهير والتي تعمل على تشكيل اتجاهات الرأي العام على المستويين : المحلي والعالمي.

و عليه يبدو من المهم التعرف على أهم التحفظات التي تثيرها النظرية النقدية حول هذه الظواهر والتي من خلالها يمكن إنتاج معرفة جديدة تربط بين هذه النظرية كمنظور والبحث في مجال علوم الإعلام والاتصال .

2- وسائل الإعلام أيديولوجيا جديدة: رغم أن وسائل الإعلام في الأصل كان ينظر إليها على أنها من وسائل التحرر وكسر كل القيود، حتى أن الإعلام

كما قال " فيليب بروتون Philippe Berton " في كتابه **انفجار الاتصال**⁽⁴⁾ أصبح بعد نهاية الحرب العالمية الثانية الملجأ الوحيد لتجنب البربرية التي عانى منها العالم، فأصبحت بديلاً للإيديولوجيات السياسية وقيمة مركزية تسمح بحل كل المشاكل الاجتماعية والاقتصادية والتي يمكن أن يحدث حولها توافق عالمي. هذه النظرة المثالية والطوباوية للاتصال عززتها الثورة الحاصلة في وسائل الإعلام والسيولة الهائلة الموجودة في المعلومات، و هو ما أكده المؤلف نفسه في كتابه " L'utopie de la

communication⁽⁵⁾ حيث يرى أن هذه إيديولوجيا جديدة أنتجت الكثير من المصطلحات المثالية مثل "القرية الكونية" و "العالم الافتراضي" والتي سعت بتبرير كونية- لكن دون مضمون- وقد دعمت بشكل متناقض مع مبادئها التطرف والأصولية والانعزالية. وسعى " بروتون " إلى تجاوز التيار الجارف من المهللين والمباركين لهذه الثورة التي لم تترك المجال للانتقاد الضروري. إذ، لم يعد مقبولا من الناحية العقلية ولا حتى من الناحية العملية، استقبال العالم لثورة الإعلام على أنها ذلك الخير المطلق الذي يحمل الحلول السحرية لمشاكل البشرية، لأنها لا تسمح للمتخصصين من البحث عن بدائل حقيقية للأنظمة الإعلامية السائدة والتي صار من الضروري أن تتعامل مع وسائل الإعلام على أنها مكونات قابلة للتغير والانتقاد.

هذا التوجه النقدي إزاء وسائل الإعلام أصبح توجهها مبررا وشرعيا في الغرب الذي يعيش عصر ما بعد الحداثة الذي بدأ في إعادة النظر في كل المسلمات وكل المبادئ التي تمثل منجزات الحداثة بعد أن أدركوا أن لا حقيقة مطلقة ولا علم شامل بل أن كل ما في الأمر أن الحقائق نسبية وقابلة للمراجعة.

3- الإعلام أداة للتضليل: تعتبر وسائل الإعلام والتكنولوجيا الجديدة للإعلام

والاتصال سلاحا فتاكا لحامية قيم الحضارة الغربية التي أصبحت تمثل هدفا للانتقاد وإعادة نظر شاملة، ولذلك، فإن يجعل وسائل الإعلام تقع في قلب الصراع الذي يخوضه تيار ما بعد الحداثة. ويرى " نعوم شومسكي Shomsky " وآخرون أن انهيار الفكر الغربي سيكون بسبب إعادة إنتاج الدعاية الغربية في وسائل إعلامهم لتقنيات تؤسس لأنظمة شمولية أكثر منها ديمقراطية؛ حيث أنه يشير إلى أن :

"صورة العالم التي تقدم لعامة الجمهور أبعد ما تكون عن الحقيقة، وحقيقة الأمر عادة ما يتم دفنها تحت طبقة وراء طبقة من الأكاذيب، وكان هذا نجاحا مبهرًا، حيث إنه منع التهديد الذي تمثله الديمقراطية، و تم إنجازه في إطار من الحرية وهو أمر غاية في التشويق، فهو ليس مثل الدولة الشمولية حيث يطبق بالقوة، و إنما هذه المنجزات تتم في إطار من الحرية، و إذا أردنا فهم مجتمعنا علينا أن نفكر بهذه الحقائق، فهي على درجة كبيرة من الأهمية لأولئك الذين يهتمون بماهية وطبيعة المجتمع الذي نعيش فيه"(6)

ويتحدث عن آلية أخرى من الآليات المعتمدة لتضليل الرأي العام وهي التخويف من العدو حيث يقول : "كانت هناك طريقة جاهزة دائما للاستدعاء: الروس، فأنت باستطاعتك أن تدافع عن نفسك ضد الروس، و لكنهم فقدوا جاذبيتهم كعدو، و أصبح من الصعب أكثر فأكثر استخدامهم، و لذا لابد من إيجاد آخرين، و في الواقع لقد انتقد الناس جورج بوش لكونه غير قادر على توضيح ما الذي يحررنا الآن، و هذا أمر غير عادل بالمرّة. فقبل منتصف الثمانينات كان بإمكانك أن تستخدم أسطوانة الروس قادمون وتلومهم على أي شيء بدون أي مجهود وأنت نائم، و لكنه خسر ذلك، و كان حتما عليه أن يأتي بأخرى جديدة، و مثلما فعل جهاز " ريغان " للعلاقات العامة في الثمانينات، أصبح الإرهاب العالمي وتهريب المخدرات والمجانين العرب و صدام حسين أو هيتلر الجديد الذي سيغزو العالم، كان لزاما عليهم الإتيان بالواحد تلو الآخر لإخافة الناس وإرهابهم حتى يعيشوا في ذعر..."(7)

يضاف إلى ذلك الكل الاستعراضي بما يتوافق مع تحويل المادة الإعلامية إلى مادة ترفيه

فالرأسمالية الحديثة حسب إريك نوفو⁽⁸⁾ ErikNeveu " هي تكتل هائل لاستعراضات. الاستعراض هنا ليس فقط سيل من الصور (إشهار، الصور النمطية للأفلام أو القصص الصحفية) ولكنها علاقة اجتماعية بين أشخاص تم استعراضهم تكون فيه أفق الممارسات الإنسانية محدد باستهلاك السلع، بايديولوجية الاستهلاك التي هي أيضا استهلاك الايديولوجيا. فتدخين سيجارة ما تعود إلى المشاركة في رمزية رجولية راعي البقر، خيار معين للباس مرتبط بنجاح اجتماعي. إنه مجتمع يقدم نفسه على أنه تبادلي، اتصالي وشفاف لن ينتج إلا "عزلة مشتركة"، التظاهر، حياة بالوكالة. بالتالي الاتصال الجماهيري من هذا المنطلق هو ممارسة وإنتاج التسلية والترفيه والإعلام لجمهور غير معروف عبر وسائل إنتاج صناعية، منظمة وتكنولوجيا عالية، يستهلك بشكل فردي من خلال المطابع والشاشات وكل وسائل النشر"⁽⁹⁾.

لقد كان هذا التوجه أحد المواضيع الجامعة للمدرسة النقدية - الممثلة في روادها أدورنو، هوكايمر، ماركوز وبنجامين Marcuse, Horkheimer, Adorno Benjamin أو مع يعرف بمدرسة فرانكفورت - التي كانت وخلال ثلاثين سنة تدور حول المخاطر التي تحملها الثقافة "الجماهيرية" و التوظيف للإنتاج الثقافي للمنطق الاقتصادي، تصنيع الصحافة وإعادة الإنتاج الميكانيكي للأعمال الفنية أتى ليحطم مشروع ثقافة بيداغوجية للموتنة⁽¹⁰⁾... بعد أن أصبحت أشياء معيارية، فاقدة لبعدها المقدس، موجهة لاستهلاك سلبي، المنتجات الثقافية تفقد بالتالي شحنتها النقدية، مساهمتهم في مقاومة السلطات. هذه المواضيع التي ظهرت في نصوص أدورنو وبنجامين أو ما عبر عنه هابرماس Habermas⁽¹¹⁾ حول الحيز العمومي (1960) التي تمثل واحدة من التعبير الأكثر الأهمية لهذه الإشكالية. ف" هابرماس " يظهر كيف أنه عبر الإشهار - بالمعنى القانوني للكلمة والفضاء المخصص للرأي العام، الدولة الدستورية التي نشأت عن الثورات الإنجليزية والفرنسية أنشأت نظاما سياسيا مبنيا على علاقات الاتصال. بدل الكلمة الوحيدة من سلطة ذات بعد طبيعي أو مقدس عوضتها سلطة الكلمة والرأي العام عبر الصحافة، النقاشات، المسارات الانتخابية. تحليل هابرماس هو أيضا مسار " نوستالجي " حنيني، حيث يصف تدهور الفضاء العمومي في القرن العشرين عبر ثقافة جماهيرية تحولت إلى موضوع استهلاكي دون طاقة نقدية، و حياة سياسية مأخوذة بمنطق العلاقات العامة وإستراتيجيات الصورة، و تراجع الوظيفة النقدية لوسائل الإعلام. وهذه النظرة تقدم صورة سوداوية للفضاء العمومي تصف فساد الرأي العام. خاصة أنها ناتجة عن نظرة نقدية للاستهلاك الثقافي وعلاقة السياسيين بالطبقات الشعبية... إن تحليل هابرماس يشكل إطارا تحليليا أوليا وأساسيا للأبحاث التي ستأتي في السنوات اللاحقة لترسخ هذا التوجه. و هذا المنظور، وصفه الأنتربولوجي الفرنسي " جورج بالاندييه " بمشهديه السلطة أو السلطة على المسرح، فالسلطة بحاجة إلى إخراج مسرحي من أجل فرض الهيبة وإقناع الناس بها... وهذا يؤكد الوجود المتزامن لرهانات المعنى وإرادات الهيمنة في كل أنواع المجتمعات البشرية على اختلافها⁽¹²⁾.

4- امبريالية ثقافية: ولعل من أهم مظاهر العولمة ما يعرف بـ الإمبريالية

الثقافية⁽¹³⁾ التي سمحت بفهم الخلل في التدفق العالمي للإعلام والاتصال، فالسبب في ذلك هو الفاعلون الجدد الذين ظهروا على مسرح يتسم بكونه عابر للقوميات، لم تعد الدول، و العلاقات بينها المحور المنظم للعالم، حيث تشكل شبكات الإعلام والاتصال الكبرى، بتدفقها "غير المرئي" و "غير

المادي"، أقاليم مجردة "منفلتة من الحدود الجغرافية، حيث تتوحد فكرة العولمة، و "النمطية الكونية" مع أطروحة "نهاية العالم" لقد كان فرنسيس فوكو ياما مروجاً لها، لكن لزيينو بريزنسكي من عرضها في تحليلاته الموسومة "المجتمع الشامل" وتترجم "العولمة" طريقة لفهم النظام الكوني وفق مبادئ النظام الوحيد الذي خرج منتصراً من الحرب الباردة أي النظام الرأسمالي لإنتاج المواد والخيرات، لكن هذه العولمة ظلت تخفي اسم هذا النظام حتى بعد انهيار جدار برلين. لقد تحول النظام بعد هذا التاريخ إلى نمط وحيد من المعيشة والثقافة والتنمية والديمقراطية. و يملك هذا النظام رؤوس الشبكة والوحدات الاقتصادية الكبرى.

وترفض الرؤى النقدية هذه الفكرة الشمولية التي مفادها أن البشرية بلغت، أخيراً أفقا لا يمكن تجاوزه. إن مفهوم "الاتصال- العالم" المستلهم من مفهوم "الاقتصاد-العالم" يستخدم لتحليل هذا الفضاء ما فوق الوطني المنظم بشكل تراتبي⁽¹⁴⁾: منطق الشبكات الثقيل يسهم بديناميكيته الاندماجية وينتج تهميشاً وإقصاء وتفاوتاً، و ينتظم "النظام العالمي" وفق نمط التحالف التجاري الذي كان سائداً في العصور الوسطى، أي أنه يستند إلى بعض النقاط التي يمكن أن تعود إليها التدفقات الكبرى للاقتصاد المعولم: المدن الكبرى والمناطق الكبرى التي يقع معظمها في الشمال، و بعضها في الجنوب، و هي التي تشكل الأقطاب الثلاثة للسلطة ممثلة في (الاتحاد الأوروبي، أمريكا الشمالية وآسيا الشرقية). حسب العبارة التي استعملها الياباني كينيشي أوهمي الذي يعتبر مُنظرَ التسيير الإداري العابر للحدود: إن العالم "الشامل" هو مكان السوق الشاملة الذي يتحدد انطلاقاً من الأقطاب المشعة لهذه السلطة، وتظل الدول المتقدمة الكبرى، رغم اختلافاتها الاجتماعية، بمثابة مرجع وحيد⁽¹⁵⁾.

و لا يمكن أن ننظر لوسائل الإعلام بمعزل عن هذه النظرة العالمية للنظام الإعلامي العالمي القائم كما هو واضح على الإمبريالية الثقافية والرأسمالية الاقتصادية، فضلاً عن هيمنة سياسية.

5- تسليع الثقافة: لقد عمل Théodor Adorno (1903- 69) وهو أحد

الرواد الذين قاموا بمحاولات لفصح تأثير وسائل الإعلام الجماهيرية على الثقافة والمجتمع. و كان لهذه الأخيرة تأثير كبير على النظرية النقدية⁽¹⁶⁾؛ حيث انتقد أدورنو، في دراسته للبرامج الموسيقية الإذاعية وضع الموسيقى التي تم الحط من قدرها بحيث لم تعد إلا تزيينا للحياة اليومية، كما فضح ما أطلق عليه مصطلح "السعادة المغشوشة للفن التأييدي" بمعنى الفن الموالي المندمج مع الأنساق القائمة. فتحليلاته للجواز تمثل أبعد ما

ذهب إليه في موقفه الراديكالي، حيث استنتج الكثيرون من موقفه سمة أوربية متجذرة، تتمثل في التمرکز الإثني حول الذات. إذ رفض أدورنو التحلي عن النقد الجمالي الخالص لمصلحة التحليل السيكوسوسيولوجي، محتقرا رؤى من يعتقد أن الجاز يمكن أن يكون أداة للتعبير عن الحرية والتحرير. فهو يرى أن الوظيفة الاجتماعية المركزية للجاز تتمثل في اختصار المسافة بين الفرد المغترب والثقافة الموالية (التأييدية)، بمعنى، ثقافة لا تسعى إلى تحقيق ما يجب أن تكون عليه، أي ثقافة مقاومة، بل الاندماج بالوضع القائم، وذلك على غرار الفن الموالي (17).

وقد استحدث أدورنو وهوركهايمر، في منتصف الأربعينيات، مصطلح "الصناعة الثقافية"، إذ قدما دراسة نقدية للإنتاج الصناعي للمواد الثقافية باعتبارها ظاهرة شاملة تهدف إلى تحويل الإنتاج الثقافي إلى سلع (18). فالمنتجات الثقافية، و الأفلام، و البرامج الإذاعية، و المجالات تحيل على نفس العقلانية التقنية، و نفس الصيغ التنظيمية والتخطيط الإداري المتبع في الإنتاج الصناعي للسيارات أو المشاريع الحضرية "لقد تم الإعداد لكل شيء مسبقا، ليجد كل فرد ما يناسبه، بحيث لا يستطيع أحد الفكاك".

فكل قطاع إنتاجي يماثل القطاعات الأخرى، و هي بدورها متطابقة بالنظر إلى بعضها البعض. ذلك أن الحضارة المعاصرة تضي على كل شيء مساحة تماثلية تطابقية. فالصناعة الثقافية توصل بضائعها التماثلية إلى أي مكان، ملبية حاجات كثيرة متنوعة، و معتمدة على معايير موحدة في إشباع هذه الطلبات، من خلال نمط صناعي في الإنتاج، نحصل على ثقافة جماهيرية مكونة من سلسلة من الأشياء التي تحمل، بكل تأكيد، بصمة الصناعة الثقافية: إنتاج غزير تماثل معياري-تقسيم عمل. هذه الوضعية ليست نتيجة قانون يخضع له التطور التكنولوجي، بل مردّها إلى وظيفة التكنولوجيا في الاقتصاد الحالي. إن العقلانية التقنية، حاليا، هي عقلانية السيطرة ذاتها. فالميدان الذي تتمتع فيه التقنية بسلطة كبيرة على المجتمع، هو ميدان أولئك الذين يسيطرون عليها اقتصاديا. إن العقلانية التقنية هي "الخاصية القسرية" للمجتمع المغترب عن ذاته.

والصناعة الثقافية هي علامة واضحة على إفلاس الثقافة، أي سقوطها في السلعة (التسليع). ذلك أن تحويل الفعل الثقافي إلى قيمة تبادلية يقضي على قوته النقدية، و يحرمه من أن يكون أثرا لتجربة أصلية. فالصناعة الثقافية هي العلامة الفاصلة على تراجع الدور الفلسفي - الوجودي للثقافة.

وهذا التوجه البحثي وضع وسائل الإعلام أمام مسؤولياتها وكشف أهم خيوط الهيمنة التي تتحكم في وسائل الإعلام العالمية، لذلك كان من الواضح أن تجد الدول النامية ضالتها في هذا التوجه البحثي الذي لا يكتفي باكتشاف عناصر الهيمنة بل يسعى لكشف سبل الإنعتاق منها.

6- يقظة في العالم الثالث: ويمكن أن نلخص التوجهات البحثية في العالم الثالث في محاولتها بناء تيارات فكرية خاصة بها بعيدا عن الهيمنة الغربية والتبعية التي تعاني منها هذه الدول، لذلك كان من البديهي أن يستفيد الباحثون في العالم الثالث من الدراسات النقدية الغربية التي اهتمت ببعدي التبعية وإشكالية مناهضة الاستعمار والتي ظهرت بشكل واضح في أبحاث مدرسة بيرمنجهام للدراسات الثقافية Cultural studies، فتشكلت بالتالي مدرسة التبعية. وهناك شبه إجماع بين كتاب مدرسة التبعية⁽¹⁹⁾ على تشخيص جوهر التبعية الإعلامية والثقافية في العالم الثالث وإرجاعها إلى عوامل تاريخية تتعلق بالسيطرة الاستعمارية الغربية مضافا إليها المحاولات الدائبة التي تقوم بها الولايات المتحدة في المرحلة الحاضرة من أجل السيطرة على ثقافات العالم الثالث وإخضاعها لصالح السوق الرأسمالية العالمية، مستعينة في تحقيق ذلك بقدراتها الإعلامية الضخمة من خلال وكالات الأنباء، الأقمار الصناعية علاوة على إمكانات هائلة في مجال تكنولوجيا الاتصال والنشاط الأخطبوطي للشركات المتعددة الجنسيات ووكالات الإعلان الدولية .

وقد انطلق كتاب التبعية الإعلامية والثقافية ومن أبرزهم " هيربرت شيلر " و"كارل نوردين سترنغ " و" تاييفاس بس " و" كارل سوفانت دالاس سميث " و" راكيل ساليما " و" لينا بالدان " و" أرمان مايكل آرث " و" سميث ميجلوب " و" تران فن دان " و" مجيد طهرينان " في تحليلهم لظاهرة التبعية من دراستهم للإعلام الرأسمالي الغربي ومحاوله التوصل إلى القوانين الأساسية التي تتحكم في مضامينه وأدواته والقوى الاجتماعية التي يعبر عن مصالحها⁽²⁰⁾ . ويلخصون رؤيتهم في أن وسائل الإعلام في الدول الرأسمالية تعتبر أدوات هامة لتحقيق الأرباح من ناحية، وللتحكم في الوعي الاجتماعي بهدف المحافظة على الأوضاع القائمة من ناحية أخرى. وفي ما يتعلق بالأوضاع الإعلامية في العالم الثالث، فهم يرون أن النظم الحاكمة في الدول النامية تواصل نفس الدور في احتكار وسائل الإعلام وتسخيرها لخدمة مصالحها وحرمان القطاعات الشعبية من حقوقها الإعلامية والثقافية. أما بالنسبة للمستوى الدولي فإن وسائل الإعلام الدولية تعد أدوات للإعلام والدعاية عن مصالح النخب الحاكمة سواء في المجتمعات الرأسمالية أو النامية.

شكلت أمريكا اللاتينية المنطقة التي وجدت في قلب استراتيجيات التنمية في ظل المواجهة بين الشمال والجنوب، فأعطت دفعا قويا "لنظرية التبعية"، إذ عرفت هذه النظرية العديد من الصيغ التي تعتمد على تقدير هامش المناورة، و على درجة الاستقلال بالنسبة لمحددات "النظام-العالم" التي اعتمدت كل أمة من الأمم . وهكذا، حدثت القطيعة مع السوسيولوجيا الوظيفية الأمريكية في الستينات، وتمت على يد جيل من الباحثين والنقاد بأمريكا اللاتينية، وإن المحاولات الأصلية للتغيير الاجتماعي مثل تلك التي قام بها الرئيس الاشتراكي سلفادور ألندي في التشيلي (1970 - 1973) قد أدرجت سياسة ديمقراطية الاتصال.

وإذا كانت أمريكا اللاتينية في طليعة من قاد هذه الدراسات⁽²¹⁾، فالسبب يكمن في أنها فجرت المسار الذي هز مفهومي التحريض والدعاية القديمين وأيضاً لأن تطور وسائل الاتصال في هذه المنطقة من العالم اكتسب أهمية أكثر من مناطق العالم الثالث الأخرى. ولم تقدم أمريكا اللاتينية نقداً جذرياً لنظريات التحديث المطبقة في مجال نشر المبتكرات وسياسة التنظيم العائلي والتعليم عن بعد، التي أدخلت في أوساط الفلاحين في إطار الإصلاحات الزراعية الخجولة، فحسب، بل أنتجت أيضاً المبادرة التي أحدثت قطيعة مع النمط العمودي لنقل المثل العليا للتنمية. هذا ما يؤكد كتاب الباحث البرازيلي باولو فريير المعنون "بيداغوجيا المقهورين" الذي أثر كثيراً في توجيه استراتيجيات الاتصال الشعبي، و في إشعاعها العالمي. هذا مع الإشارة أن أمريكا اللاتينية تميزت مبكراً، و بشكل دائم، بتفكيرها في العلاقة بين الاتصال والتنظيم الشعبي.

7- العرب : العربية الأخيرة في القطار: رغم أهمية الإسهامات التي قدمتها مدرسة التبعية سواء في المجال الاقتصادي أو المجال الإعلامي والثقافي، إلا أننا نلمس عدم الاهتمام بهذا التوجه في العالم العربي، و كأن العالم العربي يوغل في تبعيته حتى من ناحية المواضيع البحثية التي لا تسعى إلى تحديد موقف الإعلام العربي من المنظومة الإعلامية العالمية، فبعد أن وضعت الولايات المتحدة الأمريكية أسس الممارسة الإعلامية على خلفية إمبريالية تجارية، قدم العديد من الباحثين من دول العالم الثالث خاصة منها دول أمريكا اللاتينية بدائل لمواجهة هذه الإيديولوجية الإعلامية الطاغية ولكن العالم العربي لم يقدم رؤيته وتصوره وحتى موقعه من هذا الصراع العالمي حول الإعلام، و كأنه لا يكثرث ولا يهتم بالدور الذي تمارسه وسائل إعلامنا المحلية في تكريس الهيمنة الغربية وتحقير الثقافات والهويات المحلية، خاصة أن الإستراتيجيات الأخطبوطية التي تمارسها القوى الغربية للسيطرة على الإعلام تتطلب دراسات مفصلة حول مختلف أبعاد الممارسة الإعلامية التي تركز الهيمنة، كما أن هذه الدراسات لا يجب أن تهمل العامل البشري المشكل من

الكوادر الإعلامية العربية المعنية بإنتاج المادة الإعلامية الخاضعة للهيمنة لاسيما وأن هذه الأخيرة تكونت من منطلق التبعية الأكاديمية المطلقة للمدارس الغربية المترجمة في مختلف معاهد وكليات الإعلام العربية.

الخلاصة

أعتقد أن النظرية النقدية توفر الأدوات والسقف النظري المناسب للتحليل بكفاءة والتعاطي علميا مع مضامين وسائل الإعلام التي تشهد مع بداية الألفية الثالثة ثورة هائلة بفضل التطورات التقنية المتسارعة والتي ترتب عنها بروز ظواهر الاغتراب في دول الجنوب التي أصبحت تحت الهيمنة شبه المطلقة للصناعة الإعلامية القائمة في الغرب والتي تخنق روح الإبداع فيها بسبب عدم توفر الفرص وكثرة الإكراهات الناجمة عن جعل مضامين الإعلام سلعا عادية تخضع لقانون العرض والطلب .

المراجع:

1. رث و الاس السون وولف، ترجمة محمد عبد الكريم الحوراني: *النظرية المعاصرة في علم الاجتماع*، دار مجدلوي للنشر والتوزيع، الأردن، 2010، ص 130 .
2. مولود زايد الطيب: *علم الاجتماع السياسي*، منشورات جامعة السابع من أبريل، الطبعة الأولى، ليبيا، 2007.
3. رث والاس السون وولف، مرجع سابق، ص 131.
4. Philippe Breton et Serge Proulx : *L'Explosion de la communication*, la découverte, France, 2001 .
5. Philippe Breton : *L'utopie de la communication*, casbah, Algerie, 2000.
6. ناعوم تشومسكي، ترجمة أميمة عبد اللطيف: *السيطرة على الإعلام الإنجازات الهائلة للبروباغندا*، مكتبة الشروق الدولية، مصر، بدون سنة نشر، ص 20.
7. ناعوم تشومسكي، مرجع سابق، ص 24.
8. Erik Neveu : *Une société de communication ?*, Montchrestien, 4édition, France, 2006 (P 36-37).
9. Tim O'Sullivan, John Hartley, eds: *Key concept in communication and cultural studies*, Second Edition, Routledge, USA and Canada, 2006 (P173).
10. Tim O'Sullivan, John Hartley, eds ; loc ; sit ; (P123).
11. Erik Neveu ; loc ; sit ; (P21).
12. محمد أركون، ترجمة هاشم صلاح: *الإسلام، أوروبا، الغرب رهانات المعنى وإرادات الهيمنة*، الطبعة الثانية، دار المساق، لبنان، 2001، (ص 25 و 29).
13. أرمان وميشال ماتلار، ترجمة نصر الدين العياضي، *الصادق رابح: تاريخ نظريات الاتصال*، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الثالثة، لبنان، 2005 (ص 186/181).
14. أرمان وميشال ماتلار، مرجع سابق (ص 186/181).
15. أرمان وميشال ماتلار، مرجع سابق (ص 186/181).
16. Paul A. Taylor & Jan LI. Harris : *Critical Theories of Mass Media: Then and Now*, Open University Press, England, 2008, (P62).
17. أرمان وميشال ماتلار، مرجع سابق (ص 88-90).
18. Tim O'Sullivan, John Hartley, eds ; loc ; sit ; (P70).
19. عواطف عبد الرحمان : *دراسات في الصحافة العربية المعاصرة*، دار الفارابي، لبنان، الطبعة الأولى، 1989، (ص 92 و 93 و 94).
20. عواطف عبد الرحمان، مرجع سابق، (ص 92 و 93 و 94).
21. أرمان وميشال ماتلار، مرجع سابق (ص 130-133).